

السلطة في المجتمعات البدوية

أ. مسلم محمد يحيى- جامعة الجزائر

.02

البدوة العربية :

تعتبر البدوة العربية نمطا معيشيا خاصا يقوم في الأساس على تربية الماشية و الرعي والترحال تلاؤما مع البيئة الصحراوية ،فقد نشأ هذا النمط في البادية و تكون تاريخيا نتيجة تفاعل دائم و طويل مع هذه البيئة استجابة لحدودها وقسوتها ومتطلباتها ،فقد حددت هذه البيئة حجم الجماعات التي قطنتها و أصنافها و التنظيم الاجتماعي المتبع من قبل هذه الجماعات.

و تتميز البدوة العربية بعبادات و تقاليد وقيم معينة أملتها طبيعة الحياة المحيطة بها،كما أن هذا المحيط هو الذي فرض على البدو نوعا معينا من المسكن و الملابس و المأكول والمشرب.

1-البناء الاجتماعي للبدو:

يتشكل المجتمع البدوي من عدة جماعات وأول جماعة لهذا المجتمع هي الأسرة التي تشكل الوعاء الذي تلتقي فيه كل روابط البدو الاجتماعية ،ويزداد نطاق الأسرة في المجتمع البدوي اتساعا حيث يشمل عميد الأسرة وأبناءه وأحفاده وزوجاتهم ،وتعتمد الأسرة البدوية على النظام الأبوي حيث يرتبط أفرادها بالأب مادام حيا . وقد تمتد المسؤولية في الغالب للأقارب كالجدة أو الأعمام في غياب الأب حيث تتصل القرابة في المجتمع البدوي العربي بالأب دون عائلة الأم¹ وتشكل مجموعا من الأسر فحذا ، و يتكون في الغالب من 6 إلى 12 خيمة تعيش في مكان واحد جنبا إلى جنب ذات خط قرابي واحد ،لكن قطعانها من الأغنام تتوزع على الإقليم لاستغلال أمثل لمناطق الرعي² ، و مجموعة أفخاذ تشكل البطن ثم تأتي القبيلة ، و تشكل رأس التنظيم الاجتماعي للمجتمع البدوي ، و يمكن اعتبارها مجتمعا متماسكا يتصف بالتضامن و سيادة روح الجماعة ، كما أن القبيلة مسؤولة عن الضبط الاجتماعي داخل المجتمع و فرض العادات و القوانين المنطق عليها ، و هي منوطة أيضا بشؤون الحرب و الدفاع و الإشراف السياسي و الإداري على مختلف الوحدات التي تشكل المجتمع البدوي .

وكما أسلفنا أن الصحراء فرضت على البدو بعض العادات و التقاليد و منها التضامن حيث أنه لا يمكن العيش بشكل فردي بل و يجب على البدو أن يعيشوا هذا

النمط الاجتماعي الخاص و مع ذلك فإن للفرد في المجتمع البدوي مكانته ، حيث أن كل خيمة تعتبر قلعة حصينة منيعة لأصحابها . وهي بمثابة مجال حرية الفردية حيث لا يحق لأحد من جيرانه أو عشيرته التدخل في شؤونه الخاصة³ .

أ-مكانة الرجل داخل الأسرة البدوية العربية :

للرجل مكانة خاصة في الأسرة البدوية فهو سيدها المطلق و المتصرف الوحيد في شؤونها و على عاتقه مسؤولية الحفاظ عليها و إعالتها ، و هذه المسؤولية فضلا عن أنها مستمدة من الأعراف و التقاليد البدوية إلا أنها مؤكدة من قبل الدين الإسلامي ، و على كل فإن الرجل يهتم أيضا إلى جدار أسرته البسيطة بأقاربه من كبار السن و العجزة ، و إذا لم يفعل الرجل ذلك بوازع من نفسه فإن التقاليد تجبره على ذلك و إلا تعرض للعار⁴ .

ب -مكانة المرأة في الأسرة البدوية :

ليس معنى السيادة المطلقة للرجل في الأسرة البدوية أن المرأة فيها مهملة ، حيث أن المرأة كأم تحتل مكانة متميزة داخل الأسرة البدوية ، كما أنها زوجة و هي عماد الأسرة البدوية حيث أنها تشارك زوجها في الأسفار و الترحال و تحرص له مواشيه و ترعاها و تهيبئ المرأة للرجل كل ما يحتاج إليه في الحل و الترحال كصنع الخيام و نصبها و نقلها و عليها أيضا حياكة الثياب فضلا عن إعداد الطعام و تربية الأبناء و غير ذلك من الأعمال⁵ .

ج-القيم البدوية :

تستمد قيم البداوة من تفاعل البدو مع بيئتهم و ضرورات التلاؤم مع النظام القاسي الذي تفرضه الصحراء ، و سنحاول فيما يلي الإشارة إلى بعض القيم البدوية.

-العصبية : إن قيمة العصبية القبلية هي قيم التضامن و التماسك الداخلي تجاه تحديات الصحراء و مخاطرها و مهمات تأمين المعيشة في بيئة قاسية قاحلة ، و تشمل قيم العصبية الافتخار بالنسب و نصره القريب و المساواة بين أفراد القبيلة ، و احترام أو طاعة الأهل و الكبار في العمر و التأثر و الحشمة و الشرف .

-الفروسية : تشدد الثقافة البدوية على قيم الفروسية ، و تشمل هذه القيم الشجاعة و اللبأس و الاعتزاز بالسلاح و الخيل و المرأة " ثلاثة لا يجوز المشاركة فيها " و الرجولة و الكبرياء و المروءة ، و تتصف قيم الفروسية هذه بمهام تأمين المعيشة و الدفاع عن النفس في غياب سلطة أعلى ، حتى الوقت الحاضر تؤهل هذه القيم البدو للدفاع عن بعض البلدان العربية التي يشكلون فيها نواة مهمة للجيش و

الحرس الوطني و القوى المحاربة الضاربة ، كما يحدث في المملكة العربية السعودية و دول الخليج ، و قد عمل البدو في البلدان التي يتواجدون فيها في تأمين الحماية للقري و المدن و القوافل ، كما حدث أيضا في الجزائر من خلال وضع السلاح تحت تصرف البدو ، حيث يشكلون خطا دفاعيا أولا في مواجهة الجماعات الإرهابية خلال سنوات اللأمن .

- **قيم الحرية الفردية :** كثيرا ما يوصف البدوي بنزعه نحو الحرية الفردية و التمسك بكلمة الشرف و الأمانة و الصدق و التعالي عن العمل عند الآخرين ، و في الوقت الذي يؤكد البدوي على عصبية و ولائه و تمسكه بتقاليد القبيلة يصر على حريته و يحافظ على كرامته .

- **قيم المعيشة :** يتمسك البدوي بعدد من القيم التي تتصل اتصالا مباشرا بنمط معيشتهم اليومية و هذه القيم تشير إلى التأكيد على البساطة و الفطرة و تحمل الصعوبات و الخشونة و الصبر ، و البدو يعودون أطفالهم على الصبر و قوة الاحتمال و لهم في ذلك وسائل منها: (تحمل الظمأ في الصحراء و الجوع) هذه بعض القيم البدوية و هي متصلة ببيئتهم الصحراوية و نمط معيشتهم الذي يتبعونه في ظل الظروف المحيطة بهم .

2-الاقتصاد البدوي :

يحيا البدوي تحت ظروف قاسية يستخلص من خلالها رزقه بالجهد ، و لهذا هو يمتن عدة حرف متنوعة تكفل له في النهاية بالكاد مجرد الحياة ، كنقل البضائع التجارية و قيادة القوافل و إرشادها في الصحاري و ممارسة الزراعة في بعض المواسم ، و لكن الاقتصاد البدوي يرتكز أساسا على الحيوان حيث يعيش على لبنه و شعره يصنع منه رداءه و خيمته و يأكل لحمه أو يبيعه كمصدر من مصادر الحصول على المال ، و يعتبر القطيع بالنسبة للبدوي كرأس المال الذي ينمو بذاته في السنين و ينجوا من الهلاك بتنقلاته في حالات الجفاف⁶ . ولعل موضوع الملكية لدى المجموعات البدوية من أكثر الموضوعات جدلا لدى الباحثين ، فبعضهم يرى أن الملكية لدى المجتمعات البدوية هي في الأصل ملكية جماعية حتى و إن تحولت بعد ذلك تحت ضغط ظروف الإنتاج المتغيرة إلى ملكية فردية ، ومن يرى أن الملكية هي فردية في الأصل والأساس حتى على الرغم من مشاركة الآخرين فيها لأنهم يرون أن هذه المشاركة غير أصيلة فرضتها ظروف اقتصادية وتكنولوجية ومجتمعية و إن كانت برغم قسوتها لم تستطع أن تطمس معالم الملكية الفردية.

-**أشكال الملكية العامة (الجماعية):**

أ- ارضي القبيلة: لكل قبيلة إقليم معين تمارس فوقه كل حقوق الملكية وليس من حق أي من القبائل أن تعتدي على تلك الحقوق بغير إذن أو اتفاق سابق يجيز لكل من القبيلتين الانتفاع ببعض أو كل أراضي القبيلة الأخرى ، و الملكية هنا ملكية عامة وقد يختلف نطاق العمومية فيضم تارة القبيلة كلها بينما يقتصر تارة أخرى على عشائر أو فروع معينة .

ب- المراعي : تلعب المراعي دورا هاما في حياة الجماعات البدوية الرعوية بالذات حيث تعتمد عليها حيوانات الرعي اعتمادا أساسيا ، بل إن المرعى يشكل مع الماء هدفا أساسيا لتجوال البدوي المستمر و من هنا كانت الملكية ملكية جماعية حقا و لكنها تكاد تكون قاصرة على جماعات معينة ،بمعنى إن مراعي القبيلة كلها توزع على الفروع الصغيرة للقبيلة كالبطون و الأفخاذ بحيث تخصص لكل منها منطقة مراعي محددة يكاد يكون لها وحدها حق استغلالها دون غيرها من البطون و الأفخاذ الأخرى لنفس القبيلة إلا بالتراضي وعلى ضوء اتفاقات محددة لكيفية الانتفاع المتبادل بمراعي كل منها.

ج- الآبار والعيون : كما سلف ذكره أن الماء و العشب يشكلان هدفا رئيسيا لتجوال البدوي فإذا كانت المراعي شيئا حيويا للبدوي وحيواناته فان الماء شيء مهم سواء للإنسان البدوي أو لحيوانه،ومن هنا كانت الآبار والعيون وغيرها من مصادر المياه ذات ملكية عامة تتيح لكل أفراد البطن أو الفخذ أو الحي الواحد حق استغلالها على أساس من المساواة المطلقة،ولكن الأمر يختلف بعض الشيء إذا ما لجأ فرد أو جماعة بدوية ما إلى حفر آبار صناعية في منطقتها فإنه يكون من حقها وحدها نظير جهدها الابتكاري أن تكون لها الأولوية في الاستغلال وفقا لمصلحتها الخاصة في الأحوال العادية ، وذلك لان الأمر يختلف كثيرا في الأحوال الطارئة عند القحط و الجفاف مثلا حيث يكون من حق كل فروع القبيلة أن تنتفع من هذا المورد الجديد أو يصبح الصراع على ملكية هذا المورد مسألة حياة أو موت حتى بين فروع القبيلة الواحدة.

د- الأراضي الزراعية : للأراضي الزراعية لدى الجماعات البدوية التي تمارس الزراعة بنوعها المستقرة والمؤقتة أهمية خاصة فهي تمثل بالنسبة للنوع الأول أساس الحياة الاقتصادية وتدور حولها بقية النشاطات الاقتصادية الأخرى، كما أنها تمثل بالنسبة للنوع الثاني مصدرا لا يستهان به من مصادر إمداد الجماعة البدوية بما تحتاجه من نباتات وحبوب ، و الملكية هنا هي الأخرى ملكية جماعية حيث تخصص لكل جماعة فرايبية بدوية قطعة محددة من الأراضي الزراعية تتولى

مختلف عمليات زراعتها و التصرف في نتاجها بما يحقق مصالح تلك الجماعة، و يقوم رئيس الجماعة بتوزيع المسؤوليات على جميع القادرين من الجماعة كما يقوم بتوزيع الناتج في النهاية على كافة أعضاء الجماعة .

البدوة في الجزائر:

تعتبر البدوة من بين الظواهر الاجتماعية الضاربة في تاريخ الجزائر عبر العصور وقد مرت هذه الظاهرة عبر التاريخ بعدة تحولات ناتجة عن الظروف السياسية المحيطة بها حيث أن كل سلطة سياسية تحاول أن تمارس على هذا النظام السوسيواقتصادي -البدوة- من أجل السيطرة عليها، وقد مرت البدوة في الجزائر بمراحل أساسية كان لها بالغ الأثر على تكوينها وسنحاول التطرق إلى البدوة قبل الاستعمار وبعده لاعتقادنا انه خلال هاتين المرحلتين عرفت البدوة اكبر التحولات

مرحلة ما قبل الاستعمار: اتسمت البدوة في الجزائر قبل الاستعمار بظاهرتين أساسيتين هما العشابة والعزابة وهما ما يمكن اعتباره رحلة الشتاء والصيف أو يمكن تعريفهما على انهما هجرة جماعية للمجتمع البدوي بكافة مكوناته البشرية والحيوانية، تفرضها ظروف النشاط الاقتصادي المعتمد أساسا على تربية الماشية وما يتطلبه هذا الاخير من رحلة بحث عن الماء والكأ وتبدأ مرحلة العشابة من أوائل شهر ابريل وتمتد إلى غاية شهر سبتمبر وهي عبارة عن عملية صعود قطعان الماشية من الصحراء باتجاه الشمال - التل- بحثا عن العشب وعن الظروف المناخية الملائمة لقطعان الماشية حيث أن موسم الحرارة في الصحراء يبدأ مع شهر ابريل وينجر عن ذلك تناقص في المناطق الملائمة للرعي والمتوفرة عن الكلاء اضافة إلى صعوبة الحصول على عنصر الماء الضروري سواء للبدو أنفسهم أو لماشيتهم . كما أشرنا سابقا أن العشابة تنطلق مع شهر ابريل صعودا نحو الشمال مرورا بالأراضي السهبية التي لاتقل أهمية عن التل من حيث التنوع النباتي فان أهل التل يترقبون هذه الظاهرة من أجل الاستفادة منها وذلك من خلال ما يحصلون عليه من أسمدة طبيعية لأراضيهم جراء عملية الرعي التي تقوم بها الماشية هذا من جهة ومن جهة أخرى المبادلات التجارية التي تحدث بين الطرفين حيث يقدم البدو الصوف واللحوم والتمر التي تصلهم قبيلة رحلة العودة إلى الصحراء مقابل منتوجات التل والمتمثل في القمح والشعير والزيت وبعض

الفواكه المجففة... الخ. وفي مقابل العشابة نجد ظاهرة العزابة وهي رحلة العودة من التل إلى الصحراء وتبدأ مع بداية شهر أكتوبر حيث أن مناطق الرعي تكون قد استنفذت كما أن تغير المناخ يدفع للبدوا للنزول إلى الصحراء حيث المناخ الجاف هربا من الرطوبة التي عادة ما تشكل خطرا على قطعان الماشية وفي طريقهم إلى الصحراء يصطحبون قطعان أهل التل معهم للمحافظة عليها خلال فصل الشتاء ومنه نلاحظ أن الظاهرتين لا تعدان مجرد رحلتين فقط وإنما نظام اقتصادي مبيني على تبادل المنافع بين أهل الصحراء والتل

مرحلة الاستعمار: يمكن اعتبار فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر الفترة التي أثرت أثرا بالغا على البداوة كنمط اجتماعي واقتصادي في نفس الوقت حتى كادت هذه الفترة أن تقضي على نمط الحياة البدوية قضاء كاملا، وذلك من خلال القوانين التي كانت الإدارة الاستعمارية تسنّها من أجل الاستحواذ على الأراضي الفلاحية ونقلها إلى المعمرين القادمين من الضفة الثانية للبحر، هذه السياسات أدت بالبدو للتواجد في فضاءات تتضاءل يوما بعد يوم حيث أصبحت أي محاولة لتكثيف الإنتاج الحيواني مستحيلة، حيث أدت هذه السياسات بفقد الفلاح لأراضيه وبالبدو لفقد قطيعه من جهة ومن جهة أخرى فقد مناطق العبور التي أصبحت موجهة للإنتاج الزراعي من قبل المعمرين.⁷

كما أن القانون الفرنسي المنظم للعقار -sénatus consulte 1863- وفر إطارا قضائيا للقضاء النهائي على النمط الاقتصادي البدوي قبل الاستعمار، وبرغم من عدم مقدرة البداوة الرطبة على البقاء مع الاستحواذ على الأراضي فإن التنظيم الإداري الجديد المطبق من طرف الإدارة الفرنسية من خلال البلديات والدواوير أدت إلى القضاء على النظام الاجتماعي للقبائل من خلال إنشاء الوحدات الإدارية الجديدة حيث كان شائعا أن نجد قبيلة واحدة مقسمة على عدة دواوير كما نجد عدة فرق تابعة لقبائل مختلفة مجمعة في دوار واحد، هذا ما أدى ليس فقط إلى القضاء على النمط الاقتصادي ولكن أيضا القضاء على النسيج الاجتماعي للبدو .

البناء الاجتماعي للمجتمعات البدوية :

يخلص بعض العلماء إلى البناء الاجتماعي لمجتمع ما يتكون من ثلاث مجموعات من العلاقات الاجتماعية، أولها يتمثل في الوحدات الاجتماعية التي تكون المجتمع والتي تعرف باسم الأشكال المورفولوجية للمجتمع و ثانيها تختص بالنظم الاجتماعية، أما المجموعة الثالثة من العلاقات الاجتماعية التي يضمها البناء الاجتماعي فتتمثل في الأنماط المختلفة للعديد من المكنات التي يحددها المجتمع و

يشغلها الأفراد وفقا لشروط خاصة ، و يقوم خلالها كل فرد بدوره الاجتماعي المعين من خلال المكانة الاجتماعية التي يشغلها .

مورفولوجيا المجتمعات البدوية:

1- الأسرة:

يكاد يكون مدلول الأسرة واحدا في مختلف المجتمعات البدوية وان اختلفت في تحديد نطاقها وظائفها ،فهي تخضع للعلاقات التي تربطها بمعتقداتها الدينية و تقاليد الخلفية و نظمها الاجتماعية وما تقتضيه ظروفها الطبيعية وأحوالها الاقتصادية ، و يزداد نطاق الأسرة في المجتمعات البدوية حيث يشمل عميد الأسرة و أبنائه وأحفاده وزوجاتهم ،الذين يظلون في ارتباط به مادام على قيد الحياة مكونين وإياه شخصية معنوية واحدة مسؤولة عن كل عضو من أعضائها.

*-وظائف الأسرة:

تقوم الأسرة بصرف النظر عن شكلها و تركيبها بعدة وظائف رئيسية من أهمها الوظائف التي تتعلق بالاقتصاد والتكاثر والتربية.

ا-الوظيفة الاقتصادية: يؤدي كل فرد من أفراد الأسرة دوره في زيادة موارد الأسرة وإنماء قدرتها الاقتصادية سواء بطرق مباشرة أو غير مباشرة ،وعلى أساس من تقسيم العمل الذي غالبا ما يكون أساسه جنسي حيث يختص الرجل بالعمل الذي يتطلب جهدا عضليا و بدنيا معينا كالصيد و الزراعةالخ أما المرأة فتشتغل بأعمال اقل وطأة كأعمال المنزل و الغزل وصنع بيوت الشعر....الخ.

ب-وظيفة التكاثر: تعتبر الأسرة المكان الطبيعي للإشباع الجنسي داخل المجتمع البدوي كما انه يؤدي إلى التكاثر الذي عن طريقه يتم الحفاظ على النوع البشري فضلا عن استمرار المجتمع الإنساني.

ج-وظيفة التربية : تقوم الأسرة من خلال وظيفتها التربوية بعدد من عمليات التنشئة الاجتماعية المختلفة لصغارها يكتسبون من خلالها التراث الاجتماعي و الثقافي و الحضاري للمجتمعات التي ينتمون إليها ،ويتحمل كل فرد من أفراد الأسرة البدوية خصوصا كبار السن عبئا رئيسيا في تلقين الصغار سواء كان ذلك تراثا أو لغة أو تقليدا أو عادة أو حتى مهارات معينة كالصيد و الرعي أو الفروسية...الخ.

2-الفخذ :

يتكون الفخذ عادة من اتحاد مجموعة من الأسر أو الفصائل ذات المصالح و الأهداف المشتركة والتي تسكن في مساكن متجاورة ويشترط فيها وحدة النسب و لا تتجاوز عادة الجد الخامس.⁸

هذا ويرتبط أبناء الفخذ برباط وثيق من الحقوق و الواجبات التي لكل منهم و عليه قبل الآخرين ومثال ذلك أن يؤدي كل واحد ما عليه من الدية متضامنا في ذلك مع بقية أعضاء الفخذ و على الواحد من افراد الفخذ أيضا أن يهب لنجدة بني فخذة، كما له عليهم أن يفرحوا أو يحزنوا لما قد يصيبه من كرب وان يتضامنوا معه في كل موقف.

وللفخذ رئيس عليه أن يوفر لأعضائه كل سبل الحماية و الأمن، و عليه أيضا أن يسير مختلف الأمور الاقتصادية و الدنيوية و ربما الدينية للفخذ، كما انه يمثل أفراد الفخذ أمام الآخرين وله في مقابل ذلك الطاعة و الولاء و الاحترام من جميع أعضاء الفخذ.

3-البطن:

البطن هي إحدى الوحدات التي يتكون منها البناء الاجتماعي للمجتمعات البدوية و البطن اكبر من الفخذ سواء من حيث عدد الأسر المشكلة لها، أو من حيث العدد الكلي مجموع أفرادها، هذا و تؤدي البطن نفس الوظائف التي يؤديها الفخذ تقريبا مع شيء من الاتساع .

***خصائص البطن:** تتميز البطن عن الفخذ بخاصية الملكية الجماعية، حيث تتركز فيها ملكية مختلف مصادر الثروة في المجتمع البدوي المحلي كملكية الآبار و العيون و المراعي وما إليها، مع ما يستتبع هذه الملكية من بروز خاصية الإدارة و التنظيم لمختلف ممتلكات البطن .

ولكل بطن رئيس أو شيخ عليه أن يؤدي مختلف الوظائف الدنيوية وأحيانا الدينية المنوطة به، هذا و تعرف البطون -كما الأفخاذ- نوعا من التمايز القائم على أساس بيولوجي، فليس الرجل كالمراة و للفتاة كالشباب فكل منهما مكانته و عمله و حقوقه و واجباته، كما تعرف البطون -كما هو الحال بالنسبة للقبائل -نوعا و ن التمايز الجماعي المرتكز على أساس النسب، فليست البطون النبيلة ذات النسب و الحسب كذلك التي لا يعرف لها أصلا.

4 العشيرة:

تتكون العشيرة من اتحاد عدد من الأسر و ربما الأفخاذ و البطون، و اليه تشترك جميعا في النسب أو عصابة واحدة ، و بدرجة تمكنهم من أن يرجعوا

بأصولهم إلى جد واحد مشترك ، كما توجد بينهم مجموعة من الحقوق و الواجبات فضلا عن المصالح الاجتماعية و الاقتصادية التي توجد بينهم و تجعلهم يسكنون متجاورين حتى تسهل عليهم من جهة أمور الدفاع عن حماهم ضد أي عدوان خارجي ، و من جهة أخرى تنظيم مختلف نشاطاتهم الاقتصادية و الاجتماعية وفق تقاليد و أعراف مدعية و من خلال رئاسة دنيوية و دينية أبوية وراثية في معظم الأحوال .

هذا و تقوم العشيرة بمجموعة من الوظائف الحيوية و الضرورية ، لا تخرج في مضمونها العام عن تلك الوظائف التي ذكرناها قبلا سواء بالنسبة للأسرة أو الفخذ أو البطن ، حيث تؤدي العشيرة نفس وظائف التضامن الاجتماعي الذي يسود بين أعضائها جميعا مع ما يخلقه ذلك الشعور بالتضامن من إحساس حقيقي بالاستقرار و الأمن، كما تتولى العشيرة مختلف مهام الضبط الاجتماعي عن طريق صيانة العادات و التقاليد و الأعراف السائدة ، و تطبيق مختلف صور العقاب على كل من يخالف القوانين العشائرية ، كما تتولى العشيرة مهمة توفير الأمن و الحماية لمختلف أفرادها عن طريق صد غارات أي عدو أو غازي ، فضلا عما تقوم به العشيرة كمالكة لمختلف مصادر الثروة العشائرية من تنظيم لمختلف أنشطة الحياة الاقتصادية بها حيث يقوم رئيس العشيرة بتوزيع المراعي و الماشية و الآبار و العيون.....الخ

5 القبيلة :

يحدد بعض دارسي البداوة العربية القبيلة كنظام ، و أنه هو الأصل في المجتمع البدوي ، فكل خيمة تمثل أسرة و المعسكر المكون من عدة خيام يمثل حيا و أعضاؤه يمثلون قوما و مجموعة الأقسام القريبة النسب يكونون قبيلة ، و هم يعدون أنفسهم أبناء دم واحد ، يتداعون للحرب بصيحة واحدة ، و يضيفون كلمة "بني " إلى الاسم الذي يجمعهم .

و يعرف بعض العلماء القبيلة بأنها اتحاد طائفة من الجماعات الإقليمية ، مع العلم بأن المقصود بالجماعات الإقليمية هو العشائر أو الزمر⁹ ، كما يرى بعض العلماء أن القبيلة وحدة اجتماعية تجمع عدة معاشر أو تجمعات محلية أخرى ، و أنها تنتشر في المجتمعات البدوية بصورة شبه شاملة¹⁰ .

و عموما القبيلة تأتي على رأس التنظيم الاجتماعي للمجتمعات البدوية ، و القبيلة كتنظيم هي أصلا مجتمع اقتصادي و سياسي و إداري و قضائي ، ويرأسها أمير أو شيخ و سلطة هذا الشيخ وراثية في معظم الأحوال ، و تركز على العصبية ،

كما أن له عدة مسؤوليات منها تعيين مواضع الرعي و مواعيد الحل و الترحال و توفير أسباب المعيشة للقبيلة .

***سمات القبيلة :** يمكن التعرف على القبيلة من خلال تحديد أهم سماتها و ذلك على الوجه التالي :¹¹

ا-لا بد لقيام القبيلة من توافر ثلاث مكونات رئيسية تتمثل في المكان المحدد و اللغة الواحدة و الحضارة الموحدة ، و إذا ما فقد واحد من هذه المكونات تفقد القبيلة شرطاً أساسياً لوجودها .

ب-يحدث نتيجة تواجد كافة أفراد القبيلة بمكان واحد و اشتراكهم في لغة واحدة و خضوعهم لنمط حضاري موحد مظاهراً من التماسك و التعاون الاجتماعي ، و يقوي ذلك الشعور بالانتماء لمجتمع واحد و يتجلى ذلك في الطقوس الدينية القبلية التي يشترك فيها الجميع ، كما يتجلى ذلك أيضاً خلال ساعات الخطر .

ج- تنظم القبيلة عدة تنظيمات شكلية تعمل على تأكيد وحدتها و تماسكها الاجتماعي و بالتالي تحافظ على كيانها و استمرار وجودها و أهم تلك التنظيمات ، التنظيم السياسي حيث يمثل القبيلة رئيس يحضى باحترام الجميع و إن كان يشاركه في رعاية شؤون القبيلة مجلس القبيلة و يتكون من رؤساء العشائر .

د- يرى بعض العلماء أن الشكل القبلي من الناحية المورفولوجية يتميز ببساطة التركيب سواء كان ذلك في عدد السكان أو في كثافتهم ، أو بالنسبة لحركة الهجرة الداخلية أو الخارجية أو عدد المؤسسات الاجتماعية... الخ

ه- يرى فريق من العلماء أن القبيلة تؤلف وحدة اجتماعية و سياسية اقتصادية متكاملة بل أنها تكاد تكون مجتمعاً مغلقاً على نفسه و لا يتصل اتصالاً ثقافياً بالعالم الخارجي و لا حتى بالقبائل المجاورة إلا في أضيق الحدود.¹²

***وظيفة القبيلة :**

للقبيلة وظيفة عمومية ، أي تتعلق بالأمر العامة و المشتركة على مختلف مستويات الوحدات الأساسية و الثانوية المكونة لها ، بحيث تكاد تكون وظيفة القبيلة قاصرة على أمرين حيويين ، أولهما يتعلق بشؤون الدفاع و الحرب ، والثاني مرتبط بالإشراف السياسي و الإداري على مختلف الوحدات الداخلة فيه ، بينما تتولى الأسرة و الأفخاذ و البطون و العشائر تسيير بقية أنشطة الحياة على الوجه السالف ذكره ، و إن كان هذا لا يمنع القبيلة من أداء بعض الوظائف الأخرى كالإشراف على الأعياد و المهرجانات... الخ.

*** الأنساق و النظم الاجتماعية في المجتمعات البدوية :**

الأنساق و النظم الاجتماعية ما هي في الواقع إلا تقسيمات لنماذج السلوك المقننة وللعلاقات المتفق عليها و التي يقرها المجتمع أو يعترف بها ،مع مراعاة أن العلاقات و النظم في المجتمعات البدوية تتشابه لدرجة يصعب معها تحديد الوظيفة البارزة لكل نظام منها على حدة ،وبحيث يمكن القول أن معظم النظم في المجتمعات البدوية تتعاون جميعا لإشباع الحاجات المختلفة للبدو في غير تخصص أو تفرد وإنما في تأثير وتأثر متبادلين يصلان إلى حد التداخل والتفاعل والتشابه ،وفيما يلي نستعرض بعض الأنساق والنظم البدوية :

1-القرابة :

تعد القرابة نظاما اجتماعيا محوريا في كثير من المجتمعات الإنسانية ،وخاصة المجتمعات البدوية ،وهي احد أيضا الأنساق الرئيسية في البناء الاجتماعي لارتباطها بكل المجالات والأنشطة الاجتماعية في تلك المجتمعات ،وأهميتها في تفسير جوانب تطورات الحياة الاجتماعية من خلال دراسة السلوك القرابي .

وتعتبر القرابة من أهم الأسس التي يركز عليها نظام الجماعات الثقافية التضامنية ويشير اصطلاح القرابة إلى مجموعة من العلاقات الاجتماعية المعقدة القائمة على واقعة بيولوجية هي الميلاد وظاهرة اجتماعية هي الزواج¹³ -العصبية والقرابة: لعل ابن خلدون هو أول من تناول موضوع العصبية ،وتحدث عنها بإسهاب مستعرضا أشكال العصبية ،ومحددا لصورها المختلفة ،ومتتبعا لأدوارها في حياة المجتمعات البدوية ،وسنحاول أن نلقي الضوء على أفكار ابن خلدون حول العصبية على النحو التالي :

1) مصدر العصبية :يرى ابن خلدون أن العصبية تعود إلى الطبيعة البشرية وإلى اثر القرابة التي تستند علة وحدة النسب كما انه وسع مفهوم النسب ،وضمنه الحلف والولاء أيضا كمصدر من مصادر العصبية

2) العصبية من خصائص البداوة :ومرد ذلك إلى أن النسب يبقى محفوظا وصريحا في الحياة البدوية ،والعصبية المتولدة منه تكون قوية في تلك الحياة¹⁴

3- الأدوار التي تلعبها العصبية في حياة المجتمع البدوي :

ا-العصبية تحمل الأفراد على التناصر والتضامن في المدافعة والحماية والقتال .
ب- تلعب العصبية دورا هاما في تأسيس الملك وتكوين الدولة، لان الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك¹⁵ .

2الزواج:

يرى بعض العلماء أن هناك ارتباطا كبيرا بين مصطلحي الزواج والأسرة، حيث يدل الزواج على تزاوج منظم بين الرجال والنساء، بينما يعبر مفهوم الأسرة على الزواج عندما يسفر عن الأبناء ومن هنا فانه من المألوف اعتبار الزواج شرطا أوليا لقيام الأسرة ، كما انه من الطبيعي أيضا أن تكون الأسرة نتاجا طبيعيا للتفاعل الزوجي، وعلى هذا فان المجتمع - بما في ذلك المجتمعات البدوية - يعتمد على الزواج ويعتبره الوسيلة المشروعة لتنظيم العلاقات الجنسية بين البالغين من رجاله و نساته ، و لا يقلل من قيمة الزواج كنظام عام لدى كل المجتمعات الإنسانية ، ما قد تبيحه بعض المجتمعات من علاقات جنسية خارج نطاق الزواج.

و قد تعرض مفهوم الزواج لعدة تعريفات تراوحت بين اعتباره " عقد يفيد حل استمتاع كل من العاقدين على الوجه المشروع" و عقد يفيد حل العشرة الزوجية بين الرجل و المرأة و تعاونهما و يحدد ما لكليهما من حقوق و ما عليهما من واجبات و " أنه اتحاد جنسي و شكلي و دائم بين رجل و امرأة في نطاق مجموعة محددة من الحقوق و الواجبات " .

و الزواج كمصطلح يعني " عقدا يفيد قصدا ملك استمتاع الرجل بالمرأة التي لم يمنع من نكاحها مانع شرعي، وحل استمتاع المرأة بالرجل".¹⁶

• أشكال الزواج :

1- الشيعوية الجنسية :

وهذا النمط من الزواج يقتضي بان تكون مجموعة ما من النساء ملكا مشاعا لعدد من الرجال ،وقد تمتد هذه الشيعوية لتصبح كل النسوة في المجتمع ملكا لكل الرجال فيه،ويرى بعض العلماء أن هذا النمط ارتبط بالنظام الاقتصادي الذي كان سائدا آنذاك حيث عاش الجميع عائلة على ما تجود به الطبيعة والذي كان ملكا مشاعا بينهم وبالتالي انسحبت تلك " المشاعية " على العلاقات الإنسانية ،و لقد ساد الاعتقاد بوجود نمط من الشيعوية الجنسية نتيجة ما لاحظته "مورجان" أثناء إجرائه لدراسات لبعض القبائل الأسترالية وما لاحظته أن بعض التقاليد تفرض على العروس الاتصال جنسيا قبل زفافها بعدد من أقاربها وفقا لتنظيم معين.¹⁷

2- الزواج المتعدد الزواج و الزوجات:

ولا يختلف هذا النوع عن سابقه إلا في وضعه قيودا على شيعوية الزواج بحيث يختص عدد معين من الرجال بعدد مساو من النساء و إن كان لهم جميعا حق

الاستمتاع بهن جميعا و قد يعرف هذا الزواج باسم الزواج الجمعي ،وقد خلف هذا النوع من الزواج شكلين الأول هو وحدانية الزوجة مع تعدد الأزواج أما الشكل الثاني هو وحدانية الزوج مع تعدد الزوجات وهذا الأخير هو الشكل الذي مازال موجودا إلى يومنا هذا ، ويمكن تفسير بقائه بأسباب أهمها عدم تعادل نسبة المواليد بين الذكور و الإناث كما تلعب الظروف الاقتصادية والحروب دورا بارزا في التعدد.

3-وحدانية الزواج :

و هو علاقة يختص فيها رجل معين بامرأة معينة وفقا لقواعد إجرائية معروفة تنظمها الأعراف و القوانين السائدة ،وتنشأ عن هذه القوانين مجموعة من الحقوق والواجبات التي تتسع لتضم أيضا الأطفال النتيجة الطبيعية لتلك العلاقة.

*طرق الزواج:

لقد عرفت المجتمعات البدوية عددا من طرق الزواج بعضها ما زال قائما أيامنا هذه و سنستعرض بعض طرق إتمام الزواج وذلك من خلال :

أ- **زواج البديل** :وهو طريقة معروفة لدى كثير من المجتمعات البدوية ،وتقوم هذه الطريقة أساسا على أن تبادل جماعتين من الجماعات البدوية امرأتين أو أكثر بغرض أن تتزوج كل واحدة رجلا من الجماعة الأخرى ،وقاعدة هذا الزواج هو أن تتساوى الفتاتان من حيث القدرة على الإنجاب أو العمل أو من حيث الإرث ويؤدي هذا الزواج إلى :

-عدم التفريط في المرأة كطاقة إنتاجية بدون مقابل .

-زيادة دعم أواصر الترابط بين مختلف المجتمعات البدوية من خلال الإيمان بان طلاق الزواج من جهة يؤدي بالضرورة إلى الطلاق من الجهة الأخرى .

-**زواج المهر** :وهو الأكثر انتشارا سواء في المجتمعات البدوية أو غيرها من المجتمعات الريفية والحضرية ،ويستلزم هذا الزواج أن يقوم طالب الزواج بدفع مهر نقدي أو عيني وغالبا ما تختلف نوعية المهر من حيث الكم والكيف حسب طبيعة الجماعات البدوية من جهة وحسب نوعية الثروة السائدة وقيمتها الاجتماعية من جهة أخرى ففي القبائل الرعوية يكون الحيوان الرعوي السائد أساس المهر ،أما الزراعيون فيكون المهر عندهم نسبة من المحصول وقد يكون المهر مبلغا من النقود .

3-**زواج الميراث** :وهو معروف لدى القبائل العربية ،ويرتكز هذا الزواج على أساس أن المرأة التي يموت عنها زوجها تصير زوجة لأقرب أقربائه وذلك قصد

الحفاظ على ميراث الزوج المتوفى داخل العائلة ويحق للمرأة حرية الزواج بشرط التخلي عن الميراث خارج العائلة .

3الطلاق :

عند الحديث عن الزواج كوسيلة لتكوين الأسرة ، يجب ومن الضروري الحديث عن الطلاق كوسيلة لحل أو انحلال هذه الأسرة ،وتعترف كثير من المجتمعات البدوية بحق الرجل في تطليق زوجته وان كانت لا تنكره في نفس الوقت على الزوجة سعيها له أن كانت لا ترى مصلحتها في استمرار الحياة الزوجية ،في ذات الوقت الذي تعترف فيه بعض المجتمعات البدوية لقبائل البوشمن الإفريقية وبعض القبائل الاسترالية بحق متساوي لكل من الرجل والمرأة في طلب الطلاق ،وما على المرأة سوى الفرار من زوجها حتى يقع الطلاق وتتحل الأسرة¹⁸ .

ومع أن حق الطلاق للرجل والمرأة معترف به لكنه ليس حق مطلق ،حيث تضع معظم المجتمعات البدوية قيودا خاصة لكليهما ،كأن يلتزم الرجل في بعض الأحيان والذي يطلق زوجته دون مبرر مشروع بالتزامات منها النفقة والحضانة وما إليها،كما تجبر المرأة الراغبة في الطلاق أن ترد على الرجل كل ما حصلت عليه منه كالأبقار والأغنام والأموال كمهر الزواج إلى غير ذلك من صور تقييد الطلاق المعروفة في المجتمعات البدوية.

هذا وقد تحجب بعض المجتمعات البدوية حق الطلاق عن الرجل والمرأة ،وتجعله حقا مشروعا للجماعة القرابية،وقد يحصل الأمر لاعتبار الطلاق في بعض الحالات من حق الهيئات القضائية في القبيلة تفصل فيه بما يتوافق مع المصالح العامة للقبيلة وللطلاق في المجتمعات البدوية إجراءات وتقاليد خاصة تهدف كلها الحفاظ على حق الزوج والزوجة بالنسبة لآثار الطلاق كحضانة الأولاد وملكية المنقولات والمواشي... الخ

- السلطة في نطاق البداوة العربية:

النظام القرابي الذي تركز عليه البداوة العربية يركز السلطة كلها في يد المشايخ أو الرؤساء ،فالشيخ أو الرئيس هو وحده الذي يعطي الأمر بالرحيل في الوقت و المكان الذي يحدده و هو صاحب القرار في الحرب و السلم كما أنه مطاع الكلمة وهو مركز الثقل في حياة البدو ،وان كان في بعض الأحوال يستعين بعدد من معاونين خصوصا في شؤون القضاء ، ويسمى هؤلاء معاونين بالعوارف أو العارفين وهم يختصون بالفصل في المنازعات التي تحدث بين أبناء العشيرة

وأحكامهم نافذة وان جاز استئنافها عند عوارف آخرين أكثر شهرة بشرط أن يتفق كلا الطرفين المتنازعين على اختيار العوارف الجدد للاستئناف .
أما السلطة داخل القبائل البدوية الجزائرية فقد كان يرتبط أساسا بمورفولوجية القبيلة بحد ذاتها ،وبما أن القبيلة تتشكل من مجموعة بطون أو حسب التعبير المحلي *الفرقة* فان السلطة ترتبط ارتباطا وثيقا بالقوة ولهذا فغالبا ما تكون السلطة في يد أقوى فرقة وهذه القوة قد يكون مصدرها عدة عوامل بما في ذلك النزاعات والصراعات داخل تلك القبيلة فيما بين الفرق المشكلة لها ،أما داخل الفرقة فان أقوى العائلات هي التي تتقاسم السلطة فيما بينها وتتركز هذه السلطة بين أيدي رؤساء العائلات الأقوى من الناحية الاقتصادية و رؤساء هذه العائلات هم من يسمون *بالشيوخ* حيث يمثلون أعيان الفرقة أو في مستوى أعلى أعيان القبيلة ،ويحاط هؤلاء الشيوخ بنوع من المجلس الاستشاري ويسمى *كبار الجماعة*مكون من مختلف أعيان الفرق أو البطون المؤثرة،ومهمة هذه الجماعة تكون في النظر في المشاكل العامة التي تخص القبيلة أو كل مامن شأنه أن يهدد استقرار أو توازن الحياة الاجتماعية داخلها كما انه ومن خلال موقعها فان آراءها أو قراراتها تكون ملزمة لكل أفراد القبيلة¹⁹.

و كما هو الحال بالنسبة للسلطة في المستويات العليا أي القبيلة فإنها تكون بيد كبير العائلة بالنسبة للمستويات الدنيا حيث انه يكون المرشد أو القاضي في نفس الوقت حيث انه يحدد مكانة ودور أو مسؤولية كل أسرة أو فرد داخل العائلة ،ومن خلال ارتباط كل فرد بعائلته فان أي تصرف منه قد ينجر عنه ردود ايجابية أو سلبية تنعكس على صورة كل العائلة في المستوى الأدنى كما انه يتعدى إلى صورة ومكانة القبيلة ككل.

2- مفهوم سلطة الجماعة :

تعني سلطة الجماعة إصدار الأحكام وتنفيذها لحل جميع الخلافات والخصومات التي قد تقع بين أفراد الفرقة -البطن - أو العرش الواحد أو مجموعة من العروش مهما كانت خطورة تلك الخصومات أو النزاعات أو التجاوزات حتى ولو كانت جريمة قتل.

و يتركب مجلس الجماعة عادة من كبار السن إذا كان خاصا بالحي الواحد والمقصود بالحي هنا هو تجمع لعائلات تشترك في النسب لجد واحد ،أما إذا كان موسعا فانه يشمل العرش كله أو القبيلة ويتركب حينئذ من ممثلي كل عشيرة أو بطون وأفخاذ العرش ،ويتفق أعضاء المجلس على مجموعة من المواثيق و

الضوابط و العادات مستمدة في أغلبها من أحكام الشريعة الإسلامية حسب درجة فهمهم للعلوم الفقهية وتشتمل تلك المواثيق على جميع مجالات بيئتهم البسيطة ، كالزواج والطلاق ، والإرث والسرققة أو الاعتداء على الحرمات و الضرب وإشهار السلاح و القتل وتحديد الدية وكيفية اقتسام دفعها بين أفراد الفرقة أو العرش على من يقتل دفاعا عن الشرف أو عن مصلحة الجماعة، ويكون العقاب ماديا مثل حرق المنزل أو ذبح حيوانات المعتدي أو غير ذلك أو معنويا مثل الإبعاد عن العرش و المقاطعة التامة للمعني في جميع المعاملات كعدم الحضور لأي حفلات له أو منعه من الحضور أو المشاركة فأي فعالية اجتماعية والامتناع عن مساعدته عندما يكون بحاجة لذلك.²⁰

وقد استمر العمل بضوابط وقواعد هذا النظام حتى بعد الغزو الاستعماري الفرنسي سنة 1830 في المناطق الجبلية و السهوب البعيدة عن السلطات الاستعمارية ، وما زالت بقياه حتى اليوم وعلى الأخص في النزاعات المدنية البسيطة وحتى المعقدة فعندما يطول النزاع بين الأفراد أو يصعب حله لدى المحاكم يتحتم على المتنازعين حله عن طريق الجماعة ، وقد كان هذا النظام سائدا في العديد من الأقاليم الجزائرية و المغربية و التونسية فمثلا في المغرب ما يزال إلى اليوم يطلق على البلديات الريفية اسم الجماعات عوض البلديات ، وفي الجزائر كان هذا النظام سائدا في جميع المناطق الجبلية و الهضاب المجاورة لها وبعض السهول الشمالية البعيدة عن السلطة المركزية

3- الدين في المجتمعات البدوية :

إن الدين كظاهرة موجودة في كل المجتمعات الإنسانية و أن له وظائف متعددة بعضها اجتماعي وبعضها نفسي كما أنه يمس الجانب الاقتصادي و الجانب السياسي وهكذا تتعدد وظائف الدين لتسع مختلف مناحي الحياة المجتمعية ، إلا أن مصادر الدين قد اختلفت و بالتالي تعددت أهدافه ووسائله فبينما نجد أن الأديان السماوية قد نزلت أولا من عند الله تعالى وتولى حمل رسالتها رسل ملهمون ومزودون بمعجزات وكتب مقدسة ، ونزلت ثانيا في مجتمعات كانت أصلا متمدنة حسب مقاييس عصرها وأوانها ، نجد في ذات الوقت أن المجتمعات البدوية ظلت محرومة ولفترات طويلة من منجزات تلك الأديان السماوية ولم تجد من بد سوى أن تضل على تمسكها بمجموعة من المعتقدات والطقوس التي ورثتها عن الآباء والأجداد أنفسهم ، وإن نستثني من ذلك المجتمعات البدوية العربية خصوصا في

مرحلة صدر الإسلام وما بعدها حيث عاشت البداوة العربية عصرها الذهبي في ظل الإسلام.

وفيما يلي سنترك جانبا كل ما يتعلق بالأديان السماوية لأنها حتى على الرغم مما علق بها أو ببعضها من شوائب في المجتمعات البدوية تكاد تكون -الأديان السماوية- معروفة ومحدودة المعالم والأدوار، ونحاول تناول بعض الظواهر الدينية في المجتمعات البدوية وخصوصا تلك التي ما زالت باقية حتى اليوم.

4- الضبط الاجتماعي في المجتمعات البدوية :

تفتقر المجتمعات البدوية في كثير من الأحوال إلى وجود أية أشكال رسمية أو منظمة من أشكال الضبط الاجتماعي ونعني بتلك الأشكال الرسمية الأجهزة الحكومية والتنفيذية المعنية بالضبط الاجتماعي، ولكنها لم تخل أبدا من وجود أشكال شعبية متعارف عليها لذلك الضبط وحتى وإن وجدت بعض الأشكال التقليدية له إلا أنه يبقى دوما لتلك الأشكال العرفية تأثيرها الواضح على مختلف عمليات الضبط الاجتماعي.

وليس معنى ذلك أن القانون غير معروف أو غير مقبول في المجتمعات البدوية بل العكس فإن لكثير من تلك المجتمعات الكثير من القوانين المرعية والمطبقة منذ عهد الآباء والأجداد لكنها كلها قوانين محفوظة في القلوب ولها طقوسها وممارسوها والحافظون لها .

ومن الأمور الواضحة في المجتمعات البدوية أيضا أن عملية الضبط الاجتماعي ليست قاصرة على القوانين والأعراف فقط بل تشاركها انساق أخرى عديدة كالدين والسحر وغيرها من الظواهر كالنار وما إلى ذلك .

وكل تلك الأنساق مجتمعة تعمل على تحقيق الضبط الاجتماعي في المجتمعات البدوية لأهدافه والتي تتجلى في تحقيق امتثال البدو للقيم والمعايير وأنماط السلوك ونماذجها بما يضمن في النهاية تحقيق التماسك والتوازن داخل المجتمع البدوي ككل.

مفهوم الضبط الاجتماعي :

يمكن تعريف الضبط الاجتماعي بأنه السيطرة المقصودة التي تؤدي وظيفة في حياة المجتمع كما تكون هذه السيطرة والهيمنة أو الضغط من جانب سلطة مطلقة وهي الجماعة الإنسانية ، كما أن الضبط الاجتماعي هو الأساس الفعال الذي يهيئ العناصر الفردية واللازمة التي تؤدي وظيفة في المجتمع وهي تحقيق التضامن والتماسك الاجتماعي²¹.

كما يمكن تعريفه على انه العمليات الاجتماعية والبناءات التي تتجه لمنع الانحراف او الحد منه ،بمعنى أي شيء يفعله الناس باعتباره محدد اجتماعيا لفعل أي شيء تجاه الانحراف أيا كان هذا الإجراء كالوقاية ،الردع والإصلاح،العدالة والثار ،التعويض...الخ.

ويرى هولينجشيد أن جوهر الضبط الاجتماعي لا يكمن في آليات المجتمع التي وضعت للتعامل مع السلوك في حالة الأزمات أو في المؤثرات المهمة في تشكيل الشخصية، وإنما يتمثل الضبط في تنظيم المجتمع بواسطة القيم والأعراف العامة الملزمة التي تحدد العلاقات بين شخص وآخر وبينه وبين الأشياء والأفراد والجماعات والمجتمع ككل ،وبالاختصار يتمثل جوهر الضبط الاجتماعي في تنظيم الناس ويتضح أن من هذا التعريف للضبط الاجتماعي على تنظيم المجتمع من خلال بعدين، يتمثل الأول في القيم والأعراف الملزمة التي تحدد سلوك الأفراد داخل المجتمع أما البعد الثاني فيتمثل في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وبين الوحدات الاجتماعية داخل المجتمع أو المجتمع ككل.²²

كما يقصد بالضبط الاجتماعي الوسيلة التي يتم من خلالها تحقيق التطابق في النظام العام للمجتمع ككل حفاظا على هيكله ،ثم باعتبار الضبط كعامل أساسي لتحقيق الموازنة بين مكونات ذلك النظام كما انه يعبر عن مختلف العمليات التي تمكن الأفراد من التواءم على عادات الجماعة وقيمها السائدة وقد تكون تلك العمليات مخططة أو غير مخططة كما أنها قد تتم عن طريق الإقناع أو التعليم أو حتى الإكراه .

ويقصد به أيضا مجموع كل من الأنماط الثقافية والرموز الاجتماعية والقيم والأفكار والمثل والمعاني الجماعية وما يتضمنه كل ذلك من عمليات وأفعال تمكن المجتمعات والأفراد من التغلب على أية توترات أو صراعات ، ومن ثم يكون من شأن الضبط الاجتماعي إعادة التوازن إلى الجماعة أو المجتمع.

أما الضبط في المجتمع البدوي فهو يعني مجموع الوسائل التي تلجأ إليها مختلف الوحدات الاجتماعية البدوية لتحقيق التكيف بين سلوك أفرادها وممارساتهم وبين ما اصطلحت عليه تلك الوحدات من معايير وقواعد للتفكير ونماذج للسلوك و العمل وفقا للثقافة المجتمعية السائدة لدى كل نمط بدوي على حدة
المسؤولية والجزاء في المجتمع البدوي :

تتميز المسؤولية في المجتمع البدوي بأنها جماعية بمعنى أن يشترك جميع أفراد العشيرة البدوية في هذه المسؤولية غرما و غنما ، وعلى ذلك فان المسؤولية على أي جريمة لا تقتصر فقط على مرتكبيها وإنما ينسحب بالضرورة على كل من تربطه بهم صلات قرابة قد تصل حتى الجد الخامس كما تقضي بذلك الأعراف البدوية العربية ، ومن هنا فان كثيرا من المجتمعات البدوية تعترف بحق أهل القتل – في حالة الثأر - أن يقتصوا من الجاني أو أي من أفراد عشيرته كما أن الدية أيضا يترتب جمعها أو توليها على كافة أفراد العشيرة .

والثأر هو احد أنواع العقاب السائدة في مجتمعات بدوية كثيرة عقابا على جريمة القتل والعمد منه بالذات وذلك بهدف إعادة التوازن للحياة المجتمعية البدوية ، هذا ويعتبر العقاب وسيلة مناسبة لاسترداد المعتدى عليه فردا أو جماعة لكرامته التي أهينت خاصة مع تسليم الجاني بحق المعتدى عليه أو أي من أهله في استرداد حقهم منه علاوة على تأكيد الرأي العام البدوي واحترامه لذلك الحق بما يدعم النظام العام للمجتمع البدوي ككل.

وهناك صور أخرى من العقاب الذي تمارسه المجتمعات البدوية والتي من أهمها 23:

- **اللعنة أو الذم الجماعي** : و الغرض من هذه الصورة التشهير بمرتكب الجرم تمهيدا للتبرء منه وإبعاده عن المجتمع أو إهدار دمه ، ومن أهم مظاهر تلك اللعنة الجماعية اجتماع البدو في مكان عام عقب ارتكاب رجل لجريمة معينة ويبدأ واحد منهم بسرد تفاصيل الجريمة التي تمت وخصوصا بالنسبة لتلك الجرائم التي يكون عقابها القتل ، ثم يعلن الجميع رأيهم في مرتكب الجرم دون ذكر اسمه صراحة ويطالبون بالموت له ومن ثم يهدر دمه ويصبح القتل هو مصيره الحتمي لاسيما في جرائم الزنا بالإكراه والقتل والعمد والجرائم التي ترتكب ضد النظام العام للقبيلة ، أما فيما عدا ذلك من جرائم كجريمة الزنا بالاتفاق أو السرقة فيكون العقاب بالإبعاد من القبيلة دون إهدار الدم .

-**التأديب**:التأديب أو التعزير هو تأديب مرتكب الجرم عقبا له على بعض الجرائم التي لا تشكل خطورة كبيرة على كين المجتمع أو تمثل اعتداء على أرواح الآخرين وحقوقهم، وللتأديب صورتان الأولى مادية أي بإيذاء مرتكب الجرم ايذاء بدنيا بالضرب أو الجلد أو الكي أو خلافه ، أما الصورة الثانية فهي صورة معنوية وتتم غالبا بتوجيه اللعان أو الإعراض عن المصاحبة والمعاشرة وهي عبارة عن

إقصاء وتهميش من الحياة الاجتماعية، وغالبا ما تتم الصورة الأولى مع البسطاء أما الصورة الثانية فتتم مع ذوي الحثيات والمكانات العالية في المجتمعات البدوية. - **دفع الدية والتعويض** : الدية للقتيل والتعويض عن المال وكلاهما مقدر ومقرر طبقا لظروف الجريمة ووضعية كل من الجاني و المجني عليه بين جماعته القرابية و الدية بالذات لاتتم إلا برضا أولياء القتيل وقبولهم لها .

هذا مع مراعاة أن الجريمة نادرة الوقوع في المجتمعات البدوية كما تعتبر الجرائم بمختلف صورها سلوكا يشجبه المجتمع لدرجة أن أهل الجاني قد يقدمون على التبرؤ منه وهذا معناه إهدار دمه، وذلك لان السلوك الانحرافي لا يعتبر علاقة مباشرة بين الجاني والمجني عليه فقط بل هو جرح لمشاعر المجتمع البدوي ككل وخروج على نظمه و ضياع لقيمه المتمثلة في الاعتزاز بالعشيرة والانتماء إليها.

كيف يتحقق الضبط الاجتماعي في المجتمعات البدوية؟

يتحقق الضبط الاجتماعي في المجتمعات البدوية من خلال العديد من الصور والممارسات التي ابتكرتها تلك المجتمعات لتحقيق الردع لمرتكبي الجريمة والتوازن الاجتماعي، وتعتبر المحاكم بصورها المتعددة من الوسائل الشائعة لتحقيق الضبط الاجتماعي ولاسيما في نطاق البداوة العربية وخصوصا أن المحاكمات خلالها تتم وفق نظام قضائي متكامل .

القضاء البدوي : نشأ القضاء البدوي في نطاق نظام فقهي فطري ينهض أساسا على الأعراف وما جرت عليه العادات والسوابق، ويرى الباحثون أن الفقه البدي خاصة في البداوة العربية قد تختلف بعض تفاصيله لكن أصوله تكاد تكون ثابتة ومعروفة للجميع والفقه البدوي عامة غير مكتوب لكنه محفوظ لدى قضاته و العارفين به والذين يحفظون أيضا أشهر القضايا البدوية بدءا من الجرائم التي ارتكبت خلالها وحتى أسماء قضاتها

و طبيعة الأحكام التي صدرت فيها والأسباب التي أدت إليها.
المحاكم البدوية²⁴:

تتشكل المحاكم البدوية وفقا للقوانين البدوية ففي نطاق البداوة العربية تحدد الأعراف أنواع القضاة وكيفية اختيارهم ووسائل النظم من أحكامهم، علاوة على تحديد من لهم حق حضور جلسات المحاكمة فضلا عن مختلف الإجراءات الخاصة بعملية المحاكمة ذاتها وفي نطاق البداوة العربية ينقسم القضاة إلى أربعة أقسام على النحو التالي :

- قضاة اللقطة وأحكام هؤلاء القضاة أحكام نهائية غير قابلة للاستئناف ومن هنا كانت أحكامهم محل استشهاد غيرهم من القضاة الذين يسعون دائما إلى الحكم على منوالهم.
 - قضاة المناهي ويختصون بقضايا العرض والدم وأحكامهم قابلة للنقض علاوة على أنهم لا يبلغون مكانة ومقام النوع الأول.
 - قضاة المعترضة وهم أقل مرتبة من الفئتين السابقتين ويختصون بمختلف إجراءات المحاكمات كتحديد نوع القضايا المطروحة وتعيين قضاتها كل على حسب اختصاصه للنظر في الدعوى فهم قضاة إجراءات لا إصدار أحكام.
- هذا ويتم اختيار القضاة باتفاق الطرفين المتنازعين وإلا فإن هذا الحق يؤول لقضاة المعترضة، وفي نطاق البداوة العربية هناك رسم للتقاضي لا بد أن يدفعه الطرفان المتنازعان يسمى الرزقة وهي تشبه الضمان الذي يؤول في النهاية إلى صاحب الحق في الدعوى المتنازع عليها، ومن العادات المرعية أن الدعوى القضائية لا تقام إلا بعد أن يقوم الموفدون نيابة عن صاحب الحق بمطالبة من عليه الحق بإعطاء كل ذي حق حقه فان استجاب المعتدي كان بها وإلا فان الإجراء التالي هو الاتفاق على تعيين القاضي الذي سيفصل في الدعوى ، وفي العديد من المجتمعات البدوية قد يكون القاضي هو زعيم القبيلة أو العشيرة أو حتى رئيس العائلة.

والمحاكمة في البداوة العربية تتم باجتماع طرفي الخصومة في بيت القاضي بغير سلاح ثم يسمح للمدعي بان يسرد دعواه ثم يتلوه المدعى عليه بدفع الاتهام وان كانت تقاليد القضاء تسمح لكل منهما بان ينيب من يترافع عنهما ن هذا ويعترف للمدعي بحقين الأول هو عرض دعواه في بداية الجلسة والثاني حقه في التعقيب على رد المدعى عليه أو على دفعه ببطلان الدعوى .

و قبل أن يبدأ القاضي في بحث القضية موضوع النزاع عليه أن يقوم بسماع الشهود ويشترط أن يكونوا حسني السيرة والسمعة ، وللقاضي أن يأخذ برأي الشهود أو يرفضه وله أيضا أن يقوم بتحليف المدعي اليمين فان حلف ربح الدعوى وان رفض خسرها والمدعى عليه إن عجز عن إثبات براءته قد يأمره القاضي بحلف اليمين وقد يعرضه لإجراءات طقوسية معينة وخاصة إذا ما كانت الجريمة من النوع الخطير كجرائم القتل أو الزنا فقد يأمره القاضي أن يلحق بلسانه جمره نار أو قضيبا محميا بالنار فان نجا كان بريئا وان أصيب بسوء كان مذنباً.

وهناك مجتمعات بدوية كثيرة لا تتيح حق الاستئناف على الإطلاق وتعتبر أن الأحكام نهائية في كل الأحوال ، وربما كان ذلك راجع لأن القضاة في معظم الأحوال هم زعماء القبائل والعشائر و كبار السن فيها ومن هنا كانت أحكامهم ذات قدسية خاصة ولا يجوز الطعن فيها، لذا فان التسليم بحكم القضاة و الرضا التام به يشكل قناعة تامة لدى الطرفين المتنازعين حتى ولو كان الحكم في غير صالح الحق ، علاوة على أن الرغبة الذاتية لدى طرفي النزاع بضرورة إنهاء خصومتها بأي شكل وبأسرع وقت تشكل هي الأخرى عاملا ضاغطا لقبول أحكام القضاة وعدم الطعن فيها.

الهوامش :

- 1 نوري خليل البرازي :البدو و البداوة و الاستقرار في العراق ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1969 ، ص 92.
- 2 Capot Rey : le mouvement de la population dans le territoire du sud , revue africaine , Alger ,1940 2trims, p.240.
- 3 جميل المكي : البدو و البداوة في الوطن العربي ، ص. 24.
- 4 - مصطفى صلاح الفوال :مرجع سابق ، ص. 72.
- 5 نفس المرجع ، ص 73.
- 6 Capot Rey : état actuel du nomadisme au Sahara recherche sur la zone aride, p.330
- 7 M'hamed BOUKHOBZA, op cit , p. 105.
- 8- مصطفى صلاح الفوال: مرجع سابق ،ص. 79 .
- 9-عاطف وصفي :الانثروبولوجيا الاجتماعية. دار المعارف . القاهرة ، 1967، ص.75 .
- 10- مصطفى صلاح الفوال: مرجع سابق ، ص. 90
- 11-عاطف وصفي :نفس المرجع ،ص. 78 .
- 12 أحمد أبو زيد: البناء الاجتماعي ، الدار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة، 1966، ص.30 .
- 13- محمد الجوهري وأخرون : ميادين علم الاجتماع ،دا ر المعارف القاهرة ،1972،ص195.
- 14- مصطفى صلاح الفوال: مرجع سابق،ص.106 .
- 15- المرجع نفسه،ص.107 .
- 16-محمد زكريا البرديسي :الأحوال الشخصية ، مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية القاهرة، 1970، ص، 13.
- 17- مصطفى صلاح الفوال: علم الاجتماع البدوي،مرجع سابق ،ص،233.
- 18- مصطفى صلاح الفوال: علم الاجتماع البدوي،مرجع سابق ،ص247.

¹⁹ M'hamed BOUKHOBZA, op cit,p.75.

20- علي خنوف: السلطة في الارياف الشمالية لبابلك الشرق الجزائري، مطبعة العناصر، الجزائر، ص.18 .

21- مصلح الصالح: الضبط الاجتماعي، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الاردن، 2004، ص.21.

22- المرجع نفسه، ص. 23

23- مصطفى صلاح الفوال : البناء الاجتماعي للمجتمعات البدوية، مرجع سابق، ص. 193

24- المرجع نفسه ، ص. 195